الكشكول اللغوي (٧)

المِزراب والمِرزاب والمِيزاب والمِئْزاب والمَسْرَبُ والمَثْعَب

أ. د. رفعت هزيم(*)

«المِزرابُ» لفظٌ شائع في بلاد الشام اليوم في لغة الخاصّة والعامّة، وهو «أُنبوبة من الحديد ونحوه تُركّبُ في سطح البيت لينصرف منها ماءُ المطر، وجمعه المزاريب»(١)، ولكن اللغويين المتقدمين ذكروا لهذه الدلالة أو نحوها ثلاثة ألفاظ أخرى ولذا اضطروا إلى ذكر تلك الألفاظ التي اختلفوا في عربيّتها أو عجمتها وإلى تكرار القول في بيان اشتقاقها والصلة بينها في أربعة مواضع من معاجمهم، فأورد «القاموس المحيط» و«لسان العرب» و«تاج العروس» ألفاظ «المئزاب» في «أزب» و«المزراب» في «زرب» و«المرزاب» في «رزب» و«الميزاب» في «وزب»(٢). وهذا ما ذكره ابن منظور في المواضع الأربعة: «أَزَبَ الماءُ: جرى، والمِئزابُ: المِرزاب، وهو المَثْعبُ الذي يَبولُ الماءَ، وهو مِن ذلك. وقيل: بل هو فارسيٌّ معرّب معناهُ بالفارسيّة: بُلِ الماءَ، وربما لمْ يُهمز،

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

(١) التكملة لـ دوزي ٥/ ٢٩٩ والمعجم الوسيط.

(٢) وتابعهم في ذلك المحْدّثون، انظر: محيط المحيط.

والجمع المآزيب. ومنهُ مِئزابُ الكعبة، وهو مَصَبُّ ماء المطر. والمِرزابُ لغةٌ في المِيزاب وليست بالفصيحة، وأنكرهُ أبو عبيد. والزَّرْبُ: مسيلُ الماء، وزَرِبَ الماءُ وسَرِبَ: إذا سال، ابن الأعرابي: المِزرابُ لغةٌ في المِيزاب، ابن السكيت: المِئزابُ وجمعهُ مآزيب ولا يُقال: المِرزاب، وكذلك الفرّاءُ وأبو حاتم. التهذيب: وزبَ الشيءُ يَزِبُ وزوباً: إذا سال، الجوهري: الميزابُ: المَثْعب، فارسي معرّب وجمعه ميازيب، قال: وقد عُرِّبَ بالهمز، وربما لمْ يُهمز»[٣].

ولعلّ فرنكل **Siegmund Fraenkel** كان أسبق المُحْدثين إلى البحث عن أصل هذه الألفاظ وبيان الصلة بينها في كتابه «الألفاظ الآراميّة الدخيلة في العربية» الذي نشره بالألمانية في لايدن عام ١٨٨٦، فذكر أن «مِرْزاب» و«ميزاب» – ومعهما «إرْدَبّ» و«إرْدَبّة» بمعنى «قناة الماء» – دخلت العربية من الآرامية بوساطة السريانية، وأن «ميزاب» عامية وليست فارسية، بل أخذتها الفارسية من العربية وصاغتها صياغة فارسية فصارت فيها «آب مِيز»، ثم عادت من الفارسية إلى العربية بصيغتها الجديدة «ميزاب» لأن اللغويين العرب غفلوا عن أصلها العربي، والدليل على ذلك – عنده – أن الجوهري – وهو فارسيّ – يقول إن «المِرْزاب لغةٌ في الميزاب وليست بالفصيحة»، ويرى فرنكل أن «إرْدَبّة» في العربيّة أصلها **'rzft'** – بالزاي والفاء– التي تحولت إلى **'mrzft** في الآرامية ثم **marzībâ** في السريانية ثم «مِرزاب» – بتقديم الراء– في العربية فنشأت عنها – بالقلب المكاني – «مِزراب» التي اشتقوا منها الفعل «زربَ» الذي لا صلة بينه وبين الفعل **zrab** «سَدَّ، حصرَ» في السريانية[٤] ثم يذكر بروكلمان أن «مرزاب»

(٣) اللسان.

(٤) Fraenkel 24-25.

– بتقديم الراء– في العربية من الآرامية اليهودية بوساطة **marzībâ** «قناة» في السريانية دون إشارة إلى لفظي «مزراب»– بتقديم الزاي– و«ميزاب»(٥).

وإذا كان معجم الفارسية اليوم يخلو من «آب ميز» فإن فيه أمثلةً كثيرة من المركّب المزجي الذي يحوي كلمة «آب= ماء» نحو: «آب زَر = ماء الذهب» و«آب كل= ماء الورد» و«آب رَز= ماء العنب أيْ النبيذ أو الخمر»، وفيه كذلك «ميزاب» و«مِرزاب» – بتقديم الراء– التي يصفها بأنها عامّيّة(٦) وكان ادي شير اطلع على ما ذكره فرنكل وما نقله سعيد الشرتوني عن المتقدمين في معجمه «أقرب الموارد» المنشور عام ١٨٨٩، وعلّق قائلاً: «المئزاب مركّبٌ من مِيز أي بول ومن آب أيْ ماء، وسبب التسمية ظاهر»(٧).

ولكن فحص هذا كله ينتهي إلى استبعاد واحدٍ من هذه الألفاظ وهو «مِرْزاب» – والراء فيه مقدّمة على الزاي– لأنه ناشئ عن الداء الذي ابتلي به الخطّ العربيّ وهو «التصحيف والتحريف» مما أدّى إلى اختلاف المتقدمين في قراءة الكلمات في النصوص التي ينقلون منها، ويسعى المختصون بتحقيق كتب التراث اليوم إلى البيان والتصحيح فينجحون غالباً ويخفقون أحياناً. ويرجّح هذا الاستبعادَ إنكارُ اللغويين المتقدمين فصاحته كقول الجواليقي نقلاً عن سابقيه: «ولا يقال مِرزاب»(٨)، ووصفُ الشهاب الخفاجي له بأنه غلط(٩)، فإن قيل إن ابن منظور ينقل عن ابن السكّيت أنه «لا يُقالُ: المِزراب – بتقديم

(٥) Brockelmann 723a.

(٦) المعجم الذهبي.

(٧) معجم الألفاظ الفارسيّة المُعرَّبة ١٤٩.

(٨) المعرّب ٥٩٨.

(٩) شفاء الغليل ٢٧٦.

الزاي- وكذلك الفراء وأبو حاتم»[١٠] فالردّ أنّ هذا تصحيف ؛ والدليل على ذلك أنه ورد بصيغة «مِرزاب» – بتقديم الراء- في «اللسان» نفسه في الجذر رزب، كما ورد دون تصحيف في المعاجم الأخرى كـ «الصحاح» و«التاج»[١١]. أضف إلى ذلك أن المتقدمين لم يذكروا - فيما أعلم - شاهداً واحداً لاستعمال «مرزاب» - بتقديم الراء - بهذه الدلالة المزعومة في الشعر أو النثر فيكون دليلاً على صلته بـ **marzībâ** في السريانية ونظيراً لـ «مِزْراب» في العربية، في حين وردت شواهد لاستعماله بصيغتي المفرد والجمع بدلالته الحقيقية وهي «السفينة الطويلة أو العظيمة»، كما في قول جرير:

يَنْهسنَ في كل مَخْشِيّ الرَّدى قَذَفٍ كما تَقاذف في اليَمِّ المرازيبُ[١٢]

وقوله في مدح الحجّاج:

سَلكتَ لأهلِ البَرِّ بَرّاً فَنِلتَهُمْ وفي اليَمِّ يأتمُّ السفينُ الجوافلُ

ترى كلَّ مرزابٍ يُضمَّنُ بَهوُها ثمانين ألفاً زايلتها المنازلُ

أما «المزراب» - بتقديم الزاي- الشائع اليوم فقد كان مستعملاً في القديم، وممن ذكره الثعالبي (ت ٤٢٩هـ) في فصلٍ من أحد كُتبه عنوانه «في تفصيل أسماء الحُفَر» نقلاً عن ثعلب عن ابن الأعرابي، قال: «إذا كانت الحُفرة في الأرض فهي الهُوّة،... فإذا حفرها ماءُ المِزراب فهي ثُجارة بالثاء والجيم»[١٣]، وقد بينوا اشتقاقه، فهو من: زَرِبَ الماءُ وسَرِبَ: إذا سال، والزِّرْبُ: مسيلُ الماء. وهذا يعني أن الفعلين منفصلان في العربية، أحدهما: زرَب ووزنه «فعَلَ»- بفتح

(١٠) اللسان زرب.

(١١) الصحاح، والتاج رزب + زرب، وأصابه التصحيف في : ديوان الأدب ١/ ٣٠٨.

(١٢) اللسان وتاج العروس رزب.

(١٣) فقه اللغة ٩٨.

العين- كقولهم: زربتُ الغنم - وهو نظير الفعل السريانيّ **zrab** «سدَّ، حصَرَ»- ومنه «الزَّريبة» للحيوانات، والآخر: زرِبَ ووزنه «فعِلَ»- بكسر العين- ولا صلة له بما ذكره فرنكل البتة، والصحيح أن نظيره في السريانية – كما يقول بروكلمان- فعلٌ آخر هو **zraf** – بالفاء- «رشَّ الماءَ» ومنه الاسم **zâriftâ** «مطرٌ غزير» الذي يرد بصيغة **zâribtâ** – بالباء- أيضاً![١٤].

وقد قرن اللغويون الفعل «زرِبَ» بالفعل «سربَ» - بفتح الراء وكسرها - الذي يقال فيه: «سرِبَ الماءُ يَسرَبُ سَرَباً فهو سرِبٌ، و: سرَبَ يسرُبُ سُروباً إذا سال وجرى ، و: انسربَ، و: أسْرَبَهُ هو، و: سَرَّبَهُ، قال ذو الرمة:

ما بالُ عينِكَ منها الماءُ ينْسكبُ كأنّه مِن كُلىً مَفْريّةٍ سَرَبُ

... والسَرَبُ: القناةُ الجوفاء التي يدخلُ منها الماءُ الحائطَ»[١٥]، وكذلك «المَسْرَبُ» الذي يشبه «المِزراب»، وقد ورد بصيغة الجمع «المَسارب» في روايةٍ ذكرها النويري في «نهاية الأرب في فنون الأدب» والسيوطي في «حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة»؛ وفحواها أنّ أحد ملوك مصر قبل زمان الطوفان علِمَ بوقوعه «فأمرَ ببناء الأهرام وبأن يُعملَ لها مساربُ يَدخلُ منها النيلُ إلى مكانٍ بعينه ثم يفيضُ إلى مواضع من أرض الغرب وأرض الصعيد»، فإما أن يكون هذا – وهو الأرجح- من باب «الإبدال» بين السين والزاي أيْ أن «سرِبَ» تحوّل إلى «زرِبَ»، وله أمثلة كثيرة في العربية، نحو: غرسَ الوردَ وغرزهُ، و: بخسَ العينَ وبخزها، و: سرطَ الطعامَ وزرطهُ، وإما أن يكون من اختلاف اللهجات، ولكن الاتفاق بينهما في المبنى والمعنى واضح. وليس الجذر «سرب» خاصاً بالعربية، فقد ورد منه في

(١٤) Brockelmann 207b+205b.

(١٥) اللسان.

الجعزية - وهي أقدم اللغات الساميّة في الحبشة- الفعل **saraba** «فاضَ» والاسم بصيغة الجمع **srâb'** «مَسارب الفيضان»[١٦].

وهكذا يتضح أصل لفظي «المِزْراب» و«الميزاب»، فأولهما- خلافاً لفرنكل وبرصوم ونخلة [١٧] - عربيّ أصيل، والتشابه بينه وبين «المَسْرَب» في اللفظ والدلالة بيّنٌ، ولا صلة له بالآراميّة والسريانيّة، والآخر - وهو «الميزاب» أو «المئزاب» - فارسيّ صاغتهُ العربيّة وانتقل منها إلى الفارسيّة وشاع استعماله عند الحديث عن مكة المكرمة لأنه في البيت الحرام، وقد حاول القرامطة اقتلاعه سنة ٣١٧هـ، وهذا يفسّر قول الجواليقي نقلاً عن سابقيه: «وقد استعمله أهل الحجاز، وأهل المدينة وأهل مكة يقولون: صلّى تحت الميزاب»[١٨].

ولعل البحث اللغوي الحديث سيُثبت أن اللفظين لم يكونا مستعملين في بيئةٍ واحدة، فقد كان «الميزاب» - وهو فارسيّ- في الجزيرة العربية والعراق، وكان «المزراب» – وهو عربيّ- في بلاد الشام، ولذا اختار الأوّلَ اثنان من أعلام الشعر والغناء في عهد هارون الرشيد، فقال أبو العتاهية:

أنتَ مثلُ الذي يَفرُّ من القَطْـ ـرِ حَذارَ النَّدى إلى الميزابِ

وقال إسحاق الموصلي:

فكنتَ كَمَنْ خافَ النَّدى أنْ يَبُلّهُ فَعاذَ من الميزابِ والقَطْرِ بالبَحْرِ[١٩]

وإذا كان اللغويون لم يُصرّحوا بأنّ «المَسْرب» قد استُعمل للدلالة على ميزاب البيت الحرام فإنهم فعلوا ذلك بلفظ «المثعب»، «قال الأزهري:

---

(١٦) Leslau 511.

(١٧) برصوم ١٦٤ ونخلة ١٨٣.

(١٨) المعرّب ٥٩٨.

(١٩) الأمالي ١/ ٢١٦.

الحِجْرُ حَطيمُ مكة كأنّه حُجْرةٌ مما يلي المَثعب من البيت»[٢٠].

وأيّاً كانت نتيجة البحث فإن المرء لا يحتاج إلى ذكر أمثلةٍ للألفاظ الدخيلة في العربية قديماً وحديثاً التي أخذتها من شتى اللغات بالرغم من وجود نظائر لها في الفصحى، وقد جمع السيوطي ما ذكره سابقوه من هذا الضرب في بابٍ من كتابه «المُزهر» بعنوان «فصلٌ في المُعرّب الذي له اسمٌ في لغة العرب»، ونقل فيه عن **صاحب الصحاح قوله**: «والميزاب يُسمّى المثعب»[٢١]!

* * *

المصادر والمراجع

بالعربية:

- الألفاظ السريانية في المعاجم العربية: مار أغناطيوس أفرام الأول برصوم، دمشق ١٩٥١
- الأمالي: أبو علي القالي، جزآن، بيروت د.ت
- تاج العروس من جواهر القاموس: مرتضى الزبيدي، طبعة الكويت ١٩٦٥-٢٠٠١
- تاج اللغة وصحاح العربية: الجوهري، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، بيروت ١٩٧٩
- تكملة المعاجم العربية: رينهارت دوزي، ج٥ ترجمة محمد سليم النعيمي، بغداد ١٩٨٢

(٢٠) اللسان.

(٢١) المزهر ١/ ٢٨٣.

- ديوان الأدب، أبو إبراهيم الفارابي، تحقيق أحمد مختار عمر وإبراهيم أنيس، مجمع اللغة العربية، القاهرة ١٩٧٧
- شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل: الشهاب الخفاجي، تحقيق محمد كشاش، بيروت ١٩٩٨
- غرائب اللغة العربية: رفائيل نخلة، بيروت ط٣ ١٩٨٤.
- فقه اللغة وسر العربية: الثعالبي، بيروت ط١ ١٩٩٧
- القاموس المحيط: الفيروزابادي، ٤ أجزاء، بيروت د.ت
- لسان العرب: ابن منظور، بيروت د.ت
- محيط المحيط: بطرس البستاني، بيروت ١٨٧٠
- المزهر في علوم اللغة، السيوطي، تحقيق جاد المولى والبجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة د.ت
- معجم الألفاظ الفارسيّة المُعرَّبة: السيّد أدّي شير، بيروت ط١، ١٩٠٨، ط٢ ١٩٨٠
- المعجم الذهبي: محمد التونجي، دمشق ١٩٩٣
- المعجم الوسيط: ط٢ القاهرة ١٩٧٢.
- المعرّب من الكلام الأعجميّ: الجواليقي، تحقيق ف.عبد الرحيم، دمشق ١٩٩٠

باللغات الأجنبية:

-Brockelmann,k.: Lexicon Syriacum.1928, Neud.Hildesheim 1966

−Fraenkel , S.: Die aramäischen Fremdwörter im Arabischen. Leiden1886 , Neud. 1982

- Leslau , W.: Comparative Dictionary of Gecez. Wiesbaden 1987